بهاء الدين العاملي مؤلفاً مجدداً

٩٥٣ - ١٠٣٠هـ / ١٥٤٦ - ١٦٢٠ م

الشيخ جعفر المهاجر

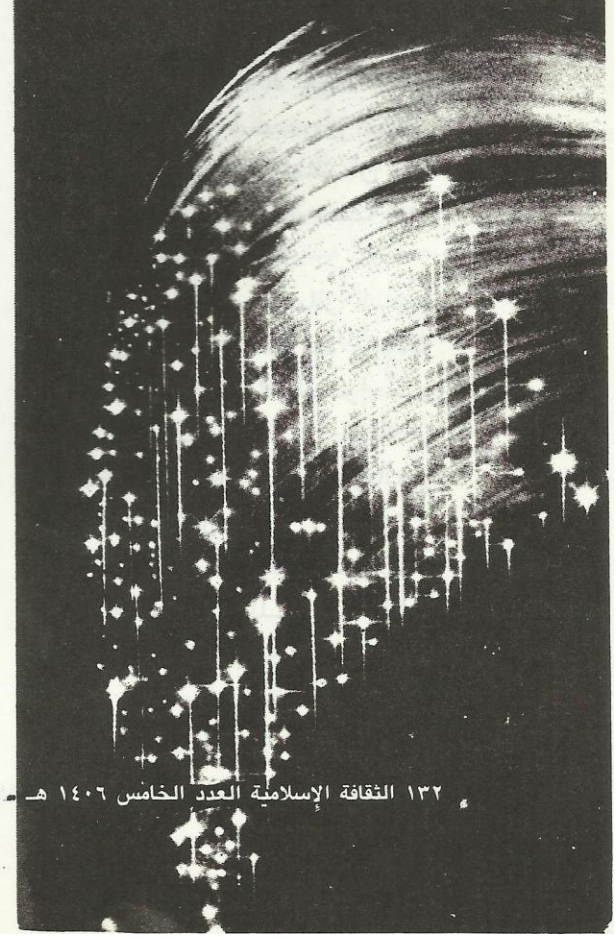

عاش الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجباعي العاملي ، الشهير ببهاء الدين العاملي ، في إيران منذ السنة ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م ، بعد أن هاجر إليها من بعلبك بصحبة والده ، في إطار الهجرة العاملية الكبرى ، التي تلت ونتجت عن قتل الشيخ زين الدين بن علي ، الشهيد الثاني سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٨ م . وهو توفي فيها سنة ١٠٣٠ هـ / ١٦٢٠ م كما نرجح . أي انه قضى في ايران عامة عمره . لم يغادرها إلا لفترة قصيرة نسبياً ، قضاها متجولاً في الحجاز فالقدس فمصر فالشام ، فالعراق على الارجح ، عائداً منها إلى إيران . وهي رحلة تحيط بها الأوهام ، ويغالي بطولها عامة كتّاب سيرته ، سماها هو « سفر الحجاز » لأنه بدأها بالحج إلى بيت الله الحرام . والحقيقة أنه بدأها بعيد شهر رمضان سنة ٩٩٢ هـ / ١٤٨٧ م . وعاد منها في السنة التالية ، ولم تطل أكثر من سنة واشهراً . ولسنا نعرف بالتحديد من الذي اخترع حكاية الرحلة التي طالت ثلاثين سنة ، ولماذا انتشرت هذا الانتشار الذريع بين نقلة سيرته ، مع انها هشة لا تتحمل نقداً . ولعل نقلة الاخبار في الماضي هم مثل زملائهم الصحفيين اليوم ، يغريهم الخبر المنطوي على الاثارة

والمبالغة ، اما الخبر العادي فلا يحرك همتهم مهما كان صادقاً . وقد أرخ بهاء الدين بنفسه بداية رحلته ونهايتها بشكل لا يدع مجالاً للشك . وليس من خطتي هنا تحقيق ذلك .ولكنني رأيت ان لا بد من التنبيه على هذا الوهم ، خصوصاً وأن له علاقة ببعض ما سأعني به فيما يلي: هذا ولم يصح لدي أنه غادر إيران بعد رحلته هذه إلا في زيارة سريعة للعتبات المقدسة في إيران سنة ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ م حيث ألف ، أو أتم تأليف كتابه « الحديقة الهلالية » .

عندما دخل إيران صبياً ، كان هذا البلد العريق ، ما يزال يجتاز صراطه انطلاقاً من الشعوب باتجاه الأمة . من التشتُّت الاقوامي المقنع بقناع المذاهب ، الى الاندماج التام الشامل ، تحت راية عقيدة جامعة ، تجاوزت كل عوامل التشتُّت الجاهزة . والحق ان تلك النهضة قد نجحت ، فيما بعد ، في أن تسبك أمة واحدة ، من خليط غير متجانس من العناصر البشرية ، فيهم الفارسي والعربي والتركي والأكراد والتركمان والبلوچ والمغول ، وكان نجاحها تاماً مدهشاً ، يشهد له أن الأمة الإيرانية قد احتفظت بهذه الوحدة مدة خمسة قرون كاملة وما تزال . والجدير بالملاحظة ، بعد ، أنه خلال تلك القرون لم تكن الوحدة موضع جدل ابداً . ولقد قُدِّر لبهاء الدين ان يعيش ليدرك زمن استقرار هذه الوحدة ، بل ليصبح هو ، بين ثلاثة من كبار الفقهاء ، أحد رموزها . كان ثاني أثنين من الفقهاء الذين هاجروا أصلاً من جبل عامل وجواره ، صارا رمزاً للوحدة الجديدة . أما الأول فهو علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي ، المتوفى سنة ٩٤٠ هـ . / ١٥٣٣ م ، والشهير بالمحقق الثاني . وأما الثالث فهو محمد باقر المجلسي ، الشهير بالمجلسي الثاني (توفي : ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م) ولكلٍ من هؤلاء الثلاثة شخصيته ودوره وظروفه التي تميّزه عن الآخر . ولكنهم جميعاً شخصيات معروفة في طول إيران وعرضها ، بحيث يصعب ان تجد إيرانياً لا يعرفهم أو يعرف عنهم . ولا ريب أن بهاء الدين يبزّ صاحبيه في هذا الميدان ، فهو شخصية قد تكاملت لها صفة الشعبية ، بحيث يمكن القول بصدق أن الشخصية الشعبية الأولى في إيران منذ أن كان حتى الآن ، يكفي أن يذكر اسمه هناك حتى تستجلب له الرحمات والدعاء بالرضوان . بل يكفي أن تنتسب إلى جبل عامل ، مثلاً ، أو تأتي على ذكر هذا الجبل بأي شكل ، حتى يحضر ذكر بهاء

الدين محاطاً بالاجلال والتقدير .

ومن ذكرياتي التي لا تنسى ، انني كنت قد وصلت ورفاق لي ، في ساعة متأخرة من الليل ، إلى بلدة في شمال إيران ، وتوقفنا عند مسجد البلد لأجل الصلاة ، فوجدناه مغلقاً . واستوقفنا أحد المارة وعرفناه بأنفسنا ، طالبين منه أن يرشدنا إلى وسيلة تمكننا من دخول المسجد وقد كان الطقس بارداً جداً ، وتركنا الرجل لبرهة ، ثم عاد ومعه القيّم على المسجد الذي رحب بنا أجمل ترحيب ، وفتح لنا باب المسجد ، محاولاً أن يظهر احتفاءه بنا بكل وسيلة . ثم تتالى وصول الناس يلحون علينا أن نقبل ضيافتهم وكان ذلك بالنسبة لنا أمراً يدعو إلى التساؤل . ولم نكتشف السر إلا عندما سمعنا أحد الحضور ، يخاطب قادماً جديداً ، جاء يسأل عن هوية القادمين بقوله : أنهم من بلاد الشيخ بهاء الدين .

كان لهذه الحادثة الفضل في أن أنارت لي جانباً من شخصية بهاء الدين ، أتيح لي أن اتتبّعه من بعد . وعدت إلى المادة التي اجتمعت لدي عنه ، لأعيد تصنيفها مضيفاً عنواناً جديداً ، يتصل بما سنبدأ بمعالجته تواً .

لدينا مرويات تدل دلالة قاطعة ، على أن شهرة بهاء الدين ، قد تجاوزت إيران أثناء حياته ، وسبقته إلى مصر والشام على الأقل ، قبل أن يقوم بزيارتهما في رحلته التي سبقت الإشارة إليها . والأرجح أنه كان أشهر انسان عاش في مشرق العالم الإسلامي ، في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي . ومن السهولة بمكان أن نربط بين شهرته حياً ، وبين صيرورته شخصية شعبية بالمثابة التي أشرنا إليها . ولكن علينا أن نلاحظ ، انطلاقاً من تلك المرويات نفسها ، أن شهرته قد امتازت بلون خاص ، كأنها لا تنتمي إلى ذلك الزمان ورجاله ، عماده حب الناس وتقديرهم له أينما حلّ . كان شيخ اسلام الدولة الصفوية يطوّف أرجاء منافسته اللدود ، الدولة العثمانية ، متنكراً تنكراً تاماً ، شمل الهيئة والاسم والمذهب ، وقد كُشف تنكره في أكثر من مناسبة ، بل وعُرف على التحقيق ، والعجيب أنه ما أن كان ذلك يحدث ، حتى تسقط القيود والتحفّظات ، المعتادة في مثل تلك الحال ، ويسود جو من الألفة والمودة الخالصة ، بين أناس لم يلتقوا من قبل .

تلك المرويات تساعد الباحث اليوم ، ليس فقط على تصور المكانة والشهرة اللتين تمتع بهما بهاء الدين، بل أيضاً على استشفاف معالم شخصيته ، كما رسخت في نفوس معاصريه ، مرافقة لشهرته وأهّلته

لاختراق حدود نادراً ما اختُرقت ، خصوصاً في ذلك الزمان الصعب ، الذي اتسم بتعصب مذهبي حاد قاطع مغلق ، نشب كصدى لسياسة الدولتين العثمانية والصفوية ، وما دار بينهما من صراع ، كان التمذهب أحد أبرز ادواته .

أن تفاعل الشخصية مع ميدانها الحيوي ، هو مركّبٌ ، تشكل عناصر الشخصية الموضوعية أحد أهم عنصرية . وفي سبيل احضار العنصر الأول ، أي عناصر الشخصية الموضوعية ، لست أجد وسيلة أسهل واوفى من رواية هذه الحكاية التي ينقلها التنكابني في « قصص العلماء » يقول ما ترجمته ببعض تصّرف :

نمى إلى الشاه عباس الكبير ، أعظم ملوك الدولة الصفوية ، أن شيخ الإسلام ، أي بهاء الدين نفسه ، كثيراً ما يجوس خلال أحياء الفقراء ، ويدخل أكواخهم ، ويجالسهم .فاستحسن أن يلفته بلباقة إلى أن هذه الزيارات لا تتناسب مع مكانة شيخ الإسلام ، فقال له يوماً : « لقد سمعت أن أحد كبار العلماء يكون مع الفقراء والاراذل في أكواخهم ، وهذا أمر غير لائق » فأجابه الشيخ : « هذا أمر غير صحيح ، فأنا كثيراً ما أكون في تلك الأماكن ولم يحدث أن رأيت أحداً من كبار العلماء هناك »

وسكت الشاه الكبير مغلوباً على أمره .

هوذا بهاء الدين ، رضوان الله تعالى عليه . نموذج بديع للبساطة والعظمة ، انساب حرّاً في الفكر والسلوك ، دون قيود ، مَترفّعاً عن الاصنام التي خضع لها الناس في زمانه وفي كل زمان . وانسان كهذا حريٌّ بأن يكسب حب الناس وتقديرهم . حباً يجتاز الحدود ، ويبقى على الزمان . ثم هو حريٌّ بأن يجعل من صاحبه رمزاًلأمة ، استراحت بعد عذاب طويل ، إلى النظام الفكري الذي أبدع فيه هو ، وسخّر له كل ما كتب . أنه البطل معبّراً في إبداعه ومسلكيّاته ، عن نمط الثقافة السّائدة ، الذي اهتدت تلك الشعوب عبره إلى الوحدة والإستقرار . وحين يصادف البطل فترته ، فهو أحد نموذجين : فإما أن يقود عملية تحوُّل ، يضع بها الناس وأهداف حياتهم على بداية منعطف جديد ، وهذا هو النموذج الأصعب . وأما أن يكون بطل المرحلة التالية ، أي عنصر إقرار وتثبيت للتحُّول الذي تمّ فعلاً،فكأنه يقول للناس: « خيراً فعلتم ! وأنا خير مثال » وواضح أن بهاء الدين من النموذج الثاني .

تعزيزاً لهذه الملاحظة ، التي عالجناها بسرعة ، علينا أن نضيف ، أن لبهاء الدين شخصية أخرى،غير تلك الموضوعية ، التى نلتمسها في

آثاره وفي كتب السِّير والتاريخ،اعني بها شخصيته الشعبية ، الأسطورية ، المحفوظة في النقولات الشّفهية ، المتداولة في إيران وبعض لبنان . وهي شيء مختلف تماماً ، يبدو فيها بطلاً حقيقياً، ومحارباً لا يُهزم في سبيل الخير العام والعدالة . لقد أُتيح لي أن أسجّل ما وصل إليَّ من هذه الحكايات . والتحليل الأوَّلي لها يُظهر الشيخ بهاء الدين رمزاً للمنتمي والخيِّر ، والطرف الثاني هو دائماً الآخر والشرير . ودائماً ، حسب تلك الحكايات ، ينتصر المنتمي والخيِّر ، بشخص الشيخ،جامع أشتات كل العلوم،خصوصاً السرية منها،وجامع الفضائل أيضاً . ولا شك أن الجمهور ، منمّق تلك الحكايات ، أراد أن يقول شيئاً ، عبر ادخاله الأسطرة في سيرة بهاء الدين . واكتشاف ذلك أمر جدير بالجهد . لأنه يطلّ بنا على الشخصية في حالة تفاعلها مع جمهورها . وهو جانب لا سبيل إلى التعامل معه عبر النصوص الموضوعية . ولكن من المؤكد ، ان الجمهور لم يبن تلك الشخصية الأسطورية عبثاً . وإنما لأن الروح الجمعّية قد أدركت ما لم يدركه الباحثون حتى الآن . رأت جانب البطولة والرمزية التاريخية في الرجل ، فنسجت له شخصية أخرى، تتصل بالروح الموضوعية اتصال الدوحة بالجذور . وقالت لنا بلغتها الرمزية الخاصة ، مثلما تفعل الاحلام ، حسب فرويد ، كيف تفاعلت أهواءُ الجمهور وآماله مع بطلها . أما ماذا قالت بالضبط ، فذلك موضوع آخر يستحق معالجة خاصة .

* * *

كانت تلك مقدمة لا بد منها لولوج رحاب بهاء الدين . ألجأ إليها ضرورة تصحيح أوهام تتعلق بسيرته ، ثم ضرورة الربط بين الشخصية في مختلف تجلّياتها ، وبين النظام الفكري لصاحبها . وهما ، كما نعرف ، وجهان لعملة واحدة .

المعروف ان بهاء الدين قد ترك عدداً كبيراً من الآثار ، يبلغ بها بعض كتّاب سيرته ما يقرب من تسعين (مؤلفاً) ، بين كتاب كبير ورسالة صغيرة وقصيدة ولغز . وإذا كان حسبان رسالة صغيرة مؤلفاً مستقلاً أمراً مبرّراً ، فإن مثل هذا الحسبان يفقد كل مبرراته بالنسبة لعمل وضع ليكون مقدمة أو جزءاً من كتاب . مثل « الوجيزة » في علم الدراية ، التي هي مقدمة كتابه المعروف « الحبل المتين » ، أو الرسالة المشهورة باسم « الفرائض البهائيَّة » وهي من أبواب الكتاب نفسه . وكذلك فلا مبرّر لإفراد قصيدته « وسيلة الفوز والأمان » حين نذكر ديوانه ، لمجرد أنها حظيت

باهتمام خاص ، ووُضعت لها الشروح الضافية .

في اعتقادي أن وضع ثبت نهائي لآثار بهاء الدين ، وبالتالي تركيب صورة شاملة لعالمه الفكري ، هو أمر لا يزال مبكراً جداً . يجب أن يسبقه تحقيق دقيق لكل مؤلف تحقيقاً يتضمن بالطبع صحة النسبة إليه . لقد اصاب الرجل شهرة كبيرة جداً ، وحظي بعناية أقل بكثير . وفي غياب الحد الأدنى من الرقابة العلمية ، اضحى الأسم الكبير ثروة سائبة ، تغري بُغاة الارتزاق من أي سبيل .

لقد ثبت لديَّ بشكل قاطع ، أن ثلاثة من الكتب المفروضة المتداولة ، المنشورة منسوبة إليه ، هي بالتأكيد منحولة عليه . منها هذا المعروف باسم « المخلاة » . من المؤكد أنه ترك كتاباً بهذا الاسم ، والشهادات على ذلك مستفيضة ، لكن هذا المطبوع المتداول يخلو من بصمات بهاء الدين المميّزة ، التي لا يمكن أن تخطأها العين الخبيرة . هذا « المخلاة » هو ، من الوجهة المعرفية ، كتاب حيادي ، لا طعم خاصاً له ، يمكن لاي انسان ، يحمل الحد الأدنى من الكفاءة ، أن يجمعه من هنا وهناك دون كبير جهد . انه مجموع ساذج ، لا ذات له . حتى ياء المتكلم ، عندما ترد في سياقه ، لا تشير إلى أي مصدر مما نتوقع أن يأخذ بهاء الدين منه ، ولم يورد أي طريق من طرق الحديث التي نعرف أنه يعتمدها ، على كثرة ما في المجموع من حديث ، وكذلك لم يذكر أي انسان ممن كان بهاء الدين اتصل أو التقى بهم . الخلاصة ، أنه يتنافر تماماً مع كل ما نعرفه عن بهاء الدين ، انساناً ، وعلاقات ، وانتماءاً ، وفكراً . مما يترك الباحث أمام أحد خيارين : فأما ان نتخلى عن كل ما نعرفه من تلك الشؤون ، وأما أن ننكر نسبة لاسند لها . لذلك فأنني أجزم ان اسم المجموع وجامعه ، أو اسم جامعه على الأقل ، قد أُلصق الصاقاً ، لغايات تجارية بحتة على الأرجح .

من تلك الكتب المنحولة ، « رسالة في تحقيق الكر » طُبعت عدة مرات في إيران ، في مكتبتنا منها طبعة حجرية صدرت سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م ، والحقيقة انها من تأليف الوحيد البهبهاني ، محمد باقر بن محمد أكمل المتوفي سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م . هذا مع الإشارة إلى أن بهاء الدين قد ترك رسالة كبيرة ، حول الموضوع نفسه ، وان بمنهج مختلف .

أما النحل الذي يصل إلى حد الافتراء ، فهو تحميل الشيخ وزر رسالة تعرف بـ « رسالة في وحدة الوجود » . وهي رسالة كبيرة ، أو كتاب صغير قصد مؤلفها تقديم فكرة وحدة الوجود بشكل مقبول ، في

أوساط أهل الشريعة والحديث . وقد طبعت في مصر منسوبة إليه ، طبعة لست أعرف لها ثانياً . ثم نُسبت إليه في عامة الفهارس التي وُضعت لآثاره . وبنى عليها أحد المؤلفين نتائج طويلة عَريضة .

والغريب ان هذه السلسلة من الأخطاء قد تمت ، دون أن تلقى اعتراضاً من أحد ، رغم أن عناصر الشك في صحة هذا الافتراء ، لا أقل من الشك ، متوفرة ، بحيث تغري الباحث بالمناقشة . من ذلك فقدان الانسجام ، بل التنافر ، بين الخط الفكري لبهاء الدين ، وبين ما تقوله الرسالة . فضلاً عن انه لم يُنسب إليه عمل كهذا في أي مصدر سابق على تاريخ نشر الرسالة . وقد أُتيح لي أن أزور مكتبة عارف أفندي في استانبول ، حيث اطلعت على النسخة الخطية ، التي أخذ عنها الناشر ، فوجدت ان اسم المؤلف الحقيقي هو محيي الدين بن بهاء الدين ، المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م ، مثبتاً بشكل واضح جلي ، لا لبس فيه ولا إبهام . والظاهر ان الناشر ، وقد رأى التشابه بين اللقبين ، أو بين اللقب والأسم ، وجد الفرصة سانحة لضربة تجارية مجانية ، إذ يزين نشرته بأسم رجل في شهرة العاملي ، بدلاً عن تركي مغمور لا يعرفه أحد . ثم جاء من بعده من نقل دون تدقيق ، فصار النحل مسلَّمة لا نقاش فيها بسبب الاستفاضة ، ولم يبقَ ألا تقديم دراسات عن بهاء الدين ، تعتمد هذه المادة (الجديدة) ، الأمر الذي تولاه باحث عراقي ، ضمن دراسة واسعة للصلة بين التشيع والتصوف ، وهي دراسة أصابت شهرة في الدوائر الغربية ، المعنية بالدراسات الإسلامية . وهكذا باتت الحكاية مثل امرىء ضلَّ الطريق : كلما تقدم أكثر ، كلما صار أكثر بعداً عن الجادة الصواب ، وكل خطوة إلى الامام ، هي ، بمقياس الهدف الصحيح ، خطوة إلى الوراء . نسأله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت ، وأن يجعلنا ممن يستحقون القول فيتّبعون أحسنه .

أما كتاب « اسرار البلاغة » الذي طبع في مصر سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م منسوباً إليه أيضاً ، فهو ونسبته معاً أهون من أن نقف عندهما .

* * *

إذ نغادر ذلك الجانب النقدي السلبي ، فإنما الغاية والقصد أن نصل إلى الجانب الآخر الايجابي ، الذي أشار إليه عنوان البحث ، أعني بهاء الدين مجدّداً .

وأنني أزعم منذ البدء ، ان الرجل لم ينسج في كل ما كتب على منوال غيره ، بل كان دائماً يسلك الطريق الصعب إلى غايته ، فيعّبد سبيله

الخاص . ليس طلباً للوحشة والغرابة ، بل انساً بالمعرفة ، ورغبة في إذاعتها وإشاعتها ، أوسع ما تكون ، وأيسر ما تكون . والتجديد عنده هو دائماً وابداً تجديد منهجي ، أي انه يتناول المنهج ، إذن فهو عمل تشكيلي ، يعمد إلى المادة المعرفية فيفتّتها ، ثم يعيد تركيبها ، فإذا هي شيء جديد . واننا لن ندرك قيمة مساهمته هذه ، الا إذا قسناها إلى عصرها . ففي ذلك العصر كان المؤلفون والمدرسون يتبارون في تقعير الكلام وإثماضه ، بحيث انه كلما كان بعيداً عن الفهم ، عصيّاً على السّامع ، كلما دلّ على ارتفاع مكانة قائله ، أما الكلام السهل البيّن ، فقد كان شيئاً مهيناً ، متروكاً للسوقة . ولعله من المناسب هنا أن نذكّر الأخوة المستمعين بما وصفنا به شخصية بهاء الدين الحرّة ، ذات البعد الإنساني الشامل ، لنضيفه ، أي الوصف ، إلى نقدنا لمنهجه ، فيتكامل أمامنا وجها العملة ، أعني جانبا السلوك والفكر ، تصديق لما سبق ، حيث قلنا انه مزيج بديع من البساطة والعظمة .

ولن نختم هذه الفقرة ، دون الإشارة إلى اننا في نقدنا لنتاج بهاء الدين ، أنما ركّزنا على الملمح الأساسي ، والا فأن للرجل ابتكارات حيثما وضع يده . ولكن ماذا نفعل ، والميدان قصير ، والحصان قدير ، والوقت ثلاثون دقيقة ، أي الف وثمانمائة ثانية عدّاً ، عليها رقيب عتيد .

اعتقد أن أجلّ ما كتب بهاء الدين ، هو كتاب غير معروف لدى قرائه بالعربية ، لسبب بسيط هو انه كتبه بالفارسية ، ولم يُترجم إلى العربية ، اعني كتابه الشهير « جامع عباسي » أي « الجامع العباسي ، منسوباً إلى الشاه عباس الكبير ، وأنني اعتمد في تقيمي للكتاب ، مفهوماً أفقياً انتشارياً للثقافة ، إذن فهو تقييم وظيفي ، يأخذ في الاعتبار وظيفة العمل الفكري .

و « جامع عباسي» هو كتاب فقهي جامع ميسّر . جامع ، من حيث انه استوعب كل المادة التي نجدها عادة في الكتب الفقهية المتوسطة ، بل انه خرج على التبويب التقليدي للكتاب الفقهي ، من حيث أضاف مادة واسعة تتعلق ببعض الاعمال المندوبة ، خصوصاً زيارة مراقد الأئمة عليهم والسلام ، ومولد رسول الله صلوات الله عليه وآله ، فضلاً عن مناسك الحج ، التي تفرد عادة بكتب مستقلة . وميسّر ، من حيث انه كُتب بلغة سهلة جداً ، تكاد لا تستعصي على أي قاريء . وفي سبيل ذلك وضع تراكيب جديدة ، كسرت اللغة الفقهيَّة التقليدية .

أن القيمة الكبرى لـ « جامع عباسي » هي أنه أول كتاب نزل

بالمعرفة الفقهية من ابراجها إلى مستوى الجمهور ، وذلك بسبب خصوصيتيه الانفتي الذكر ، ثم بسبب خصوصية المرحلة التاريخية ، والجو النفسي الاجتماعي العام الذي اتسمت به : مما سنشير إليه تواً ، وبذلك اتيح لهذا الكتاب ان يحقق انجازاً هائلاً على المستوى المعرفي ، وعلى المستوى الحضاري ، في آن واحد معاً . أما على المستوى المعرفي ، فواضح . وأما على المستوى الحضاري ، فهو انه أتاح للتوجيه الفقهي الاتصال مباشرة بالحوافز السلوكية لأكبر عدد ممكن من الجمهور ، فساهم في نسق منظومة العلاقات النفسية الاجتماعية ، ومن السهل ان ندرك تأثير ذلك على الاتجاهات السياسية والاجتماعية خصوصاً ، واضعين في الحسبان ، ان كل ذلك قد حصل في الوقت الذي كانت فيه إيران تجتاز مرحلتها الانتقالية ، من الاقوام ، مقنّعة بقناع المذاهب ، إلى الأمة . فجاء « جامع عباسي » ليهب الصياغة الناشطة دفعة اضافية ما كان عنها بديل .

اعتقد ان هذا الكتاب ، هو أحد أعظم الكتب تأثيراً في تاريخ الشعوب الإسلامية .

أما كتاب « الفوائد الصمدية » فالتجديد المنهجي فيه أبين . فهو كتاب في النحو ، وضعه لشقيقه الاصغر عبد الصمد ، الذي توفي في مقتبل العمر . وأنني أريد أن أبوح لكم بأمر ، أرجو أن يكون موضع تفّهمكم ، فلا تظنوا بي الظنون ، فأنا ولله الحمد في صحة نفسية جيدة . وهو أنني ما أخذت هذا الكتاب بين يديَّ ، الا وأكاد اشعر بان له قلباً ينبض ، فكأن مؤلفه ، رحمات الله تعالى عليه ، وهو الذي وسع الناس جميعاً حباً ، قد أفرغ فيه قلبه الكبير . وأخال انه ما كتبه الا إشفاقاً على أخيه من كتب النحو الجافة المعقّدة ، التي كان عليه ان يدرسها . ولسنا ندري حقاً ، هل أتاح الزمان لعبد الصمد أن يفيد من عطف أخيه ، أم ان ملك الموت سبق ؟ ولكننا نعلم بالتأكيد ان عشرات الألوف ، بل مئات الألوف ، من مثل عبد الصمد ، قد درجوا إلى العلم عبر هذا الكتاب ، بعد ان انتشر وذاع ، وما يزال . يقدم « الفوائد الصمدية » المادة التي نجدها عادة في كتب النحو المختصرة ، لكنها موّزعة توزيعاً مبتكراً . اذ ركّبه من خمس حدائق : أي أبواب ونلفت النظر هنا إلى ما في هذه الاستعارة من دلالة ، وصلتها بالمنهج من جهة ، وبما أحاط تأليف الكتاب من جو حميم ، من الجهة الأخرى ، فكأن المؤلف كان يقوم بعمل تزييني .

قسّم المؤلف مادة كتابه إلى أربعة أقسام،خلا المقدمة: الاسم،الفعل، الجمل ، الحروف ، فخص الاسم

بباب مستقل ، فدرسه في مواضعه المختلفة : مبنياً ومعرباً ، نكرة ومعرفة وأنواع المعارف ، ومثنى وجمعاً ... الى آخره . ثم انتقل إلى الأفعال ، فدرس انواعها ، الماضي والمضارع والأمر ، والمبني والمعرب ، واللازم والمتعدي وما إلى ذلك . وفي الحديقة الرابعة الجمل وما يتبعها ، اسمية وفعلية التي لها محل من الاعراب والتي لا محل لها . وختم في الحديقة الخامسة بالمفردات ، أي الحروف ذات المعاني ، فاثبتها منسوقة على الألفباء ، ملحقاً كل حرف ببيان مختصر بمعناه ووظيفته .

لن أقول شيئاً في نقد هذا المنهج ، فأنا أعلم وتعلمون ، بأن تيسير النحو ، كان وما يزال مشكلة تربوية عصيّة ، ولكنني اراه ، كواضعه ، يجمع بين البساطة والابداع ، إلى درجة أن المرء يتساءل : لماذا لم يفكّر أحد بمثل هذا قبل بهاء الدين .

نعم. بعد أربعة قرون من حياة « الفوائد الصمديّة » خرج على الناس استاذ في جامعة مصرية بمشروع لتيسير النحو ، ضمّنه كتاباً يحمل اسم « لغة الاعراب » . هذا المشروع هو تماماً منهج العاملي في « الفوائد الصمدّية » ، لم يغادر منه صغيرة ولا كبيرة ، قدّمه على انه من ابتكاره هو ، لم يسبقه إليه سابق .

ولن اعلّق على هذا الفعل بشيء ، تاركاً لكل منكم ان يعلّق بما يشاء .

ولكنني اذكّركم بما قلته قبل قليل ، من ان بهاء الدين ثروة سائبة .

وأننا حتماً لن نستطيع ان نستمر في تتبّعنا لمنهجية الشيخ التجديدية في كل كتاب من كتبه . ولذلك فأننا سنكتفي بالإشارة إلى أمرين جليلين ، يتصلان بخطتنا في هذا البحث ، من جهة ، كما يتصلان بمنهجية الشيخ فقيها . هذان الأمران هما عنصران اساسيان ، ما يزالان مفقودين عندنا حتى اليوم . أي اننا سنكتشف فيما يلي ، أين يتقدمنا بهاء الدين .

الأمر الأول :

فمن مشروعات المنهجية الجليلة ، عمله على نسق النصوص التي يرجع إليها المجتهد في استنباط الحكم الشرعي ، من قرآن وحديث ، نسقاً موضوعياً . ابتداء من الفرع الفقهي حسب موقعه من الكتاب الفقهي ، وانتهاء إلى الفرع نفسه ،ولكنه يبدأ به بشكل فتوى ، لينتهي منه وقد أصبح محصّلة عمل اجتهادي متكامل . أي ، نموذجياً ، مروراً بالآلية التالة : (١) الفرع الفقهي (٢) نصوص من قرآن وحديث مستوفاة ، بحيث لا يشذّ عنه نص ذو علاقة بالمسألة . (٣) نقد الحديث من حيث سنده (٤) مناقشة الدلالات بيانياً واجتهادياً وفقاهتياً . (٥) العودة إلى الفرع الفقهي .

من كل هذا نعرف ان مشروعه كان أكبر بكثير من مجرد عمل

فهرسي ، وان تكن الفهرسة جزءاً اساسياً منه ، الغاية من منهجة كامل العملية الاجتهادية ،يتداخل فيها علوم القرآن والحديث والرجال واللغة والأصول والقواعد الفقهية ، بشكل تراتبي ، بحيث تتآزر جميع المحصلات العلمية لتنتج الحكم الشرعي .

قيمة هذا المنهج ، انه يوفّر جهوداً كبيرة ، تضيع إذ يضطر كل فقيه ، الى العودة إلى المصادر الواسعة ، غير المفهرسة غالباً ، لآيات الاحكام والحديث ورجاله وما إلى ذلك .

وقد حقّق هذا المشروع منهجياً ، وعلى مستويين مختلفين ، في كتابيه « الحبل المتين » و « مشرق الشمسين » . ولكننا نلاحظ أن هذا الاتجاه المنهجي لم يستمر من بعد الشيخ ، لاسباب ليس هنا محل بحثها . كما أننا نلاحظ أيضاً ، ان الاسباب التي نتصور انها دعت الشيخ للقيام بمشروعه هذا ما تزال قائمة ، بحيث ان الفقيه اليوم ، ما يزال يعاني الكثير من تشابك وتداخل المصادر ، وفقدان المنهجية في وضعها .

أما الأمر الثاني ، فهو تداخل العقلية العلمية والتفكير الفقهي عنده ، وتداول التأثير بينهما .

فمن المعلوم ان الشيخ شارك في علوم عصره ، من فلك وهندسة وحساب وطب ، وكانت مشاركته في بعضها متقدمة . وقد تحدث بعض من سبقني في هذه الندوة حول الموضوع ، مما يجعل أكثر من التذكير به تكراراً غير مفيد . انما اود أن أضيف إلى ذلك ، الوقوف عند جانب تأثير معرفته العلمية في آرائه كفقيه . كما ان من الممكن ان ننظر إلى الموضوع من الزاوية الأخرى ، فنتحدث عن تأثير مشاركته الفقهية في أعماله كعالم ، لولا ضيق فسحة الوقت من جهة ، وثقتنا بأن هناك من هو أحق منا بمعالجة هذا الموضوع ، بين مؤرخي العلوم في الحضارة الإسلامية .

في سبيل تقديم مثال على تأثير نضجه العلمي على آرائه كفقيه ، سأكتفي ، على سبيل المثال والنموذج ، بأن أنقل اليكم النص التالي ، الذي فنّد فيه رأي من يمنع جواز التعويل على علماء الهيئة في تحديد موضوعات شرعية ، مقتبساً من كتابه « الحبل المتين » الصفحة ١٩٤ ـ ٩٥ ط . ايران ١٣١٩ . مع التأكيد على أنه مجرد مثال له ما لا يحصى من النظائر .

يقول :

« وأما قولك ، ان شيئاً من كلامهم (أي علماء الهيئة) لا يفيد علماً ولا ظناً ، فبعيد عن جادة الانصاف جداً . وكيف لا يفيد شيء من كلامهم علماً ولا ظناً ، وقد ثبت أكثره بالدلائل الهندسية » »

« وأما قولك ، انه لا وثوق لك بإسلامهم ، فضلاً عن عدالتهم (.....) فكلام عار عن حلية السداد . إذ اليقين غير شرط . ورجوع الفقهاء فيما يحتاجون إليه من كل فن إلى علماء ذلك الفن ، وتعويلهم على قواعدهم - إذا لم تكن مخالفة لقوانين الشرع - شائع ، ذائع ، معروف فيما بينهم . كرجوعهم في مسائل النحو إلى النحاة ، وفي مسائل اللغة إلى اللغويين ، وفي مسائل الطب إلى الأطباء ، وفي مسائل المساحة والجبر المقابلة والخطأين وماشاكلها ، إلى أهل الحساب . من غير بحثهم في عدالتهم وفسقهم . بل يأخذون عنهم تلك المسائل مسلّمة ، ويعملون بها من دون نظر في دلائلهم والتي ادتهم إليها . لحصول الظن الغالب ، بأن الجّم الغفير من الحذّاق في صناعة من الصناعات ، إذا اتفقت كلمتهم على شيء مما يتعلق بتلك الصناعة ، فهو أبعد عن الخطأ » .

للمرة الثانية أقول لكم ، هوذا بهاء الدين ، روح عذبة ، وعقل نهجي . وها هو هنا صديق للمعرفة ليس عنده أية مشكلة معها . امرؤ عرف شيئاً من الحقائق التي اودعها الله تعالى فيما خلق ، وعرف شريعته المنزلة على سيد من خلق ، وها هو مأخوذاً بالعجب ، كيف يجرؤ امرؤ على الفصل بين شريعته المحّققة وشريعته المنزلة ، وكلٌ من عند الله . ان بهاء الدين في موقفه هذا ما يزال متقدماً علينا حتى الآن بما لا يُقاس .